2002-722-0001-٢

شؤون لبنانية

"شيء آخر" في دمشق؟

لا زيارة الوفد الكتائبي لدمشق تشكل حدثاً استثنائياً، ولا زيارة مجلس المفتين، ولا بطبيعة الحال زيارة رئيس الحكومة وسط عودة الوضع السلطوي الى حروبه ومعاركه مسابقاً هذه المرة الاحتدام السياسي الداخلي وكأن ثمة عبثاً كبيراً وخطيراً بمجمل الوضع اللبناني ينساق اليه بعض الاطراف بلغة طائفية منقرضة كما ينساق اهل السلطة الى معارك التشفي وتصفية الحسابات في لحظة سياسية واقتصادية قد تشكل مقتلاً لما تبقى من آمال واهية في انقاذ لبنان من الكارثة.

الزيارة الحدث لدمشق هي التي سيقوم بها اليوم تحديداً وفد كبير من اهالي المخطوفين والمعتقلين والمختفين في السجون السورية، لأنها حدث لا سابق له لا في تفكير فئة واسعة من ضحايا اخطر القضايا التي تمس الناس مباشرة في ملف العلاقات اللبنانية – السورية على المستوى الشعبي لا السياسي او الرسمي، ولا سابق له كذلك في تفكير النظام السوري الذي لولا سماحه بالزيارة لما كانت لتحصل بالتأكيد.

اذن ثمة شيء في دمشق يملي على سلطاتها اظهار مزيد من المرونة والعقلانية والانفتاح اكثر بكثير مما يلتقطه الوسط السياسي والرسمي اللبناني اللاهي بحروبه المتنوعة. وثمة شيء لدى اهالي المخطوفين والمعتقلين والمختفين يفوق بالتأكيد شجاعة اي سياسي ويدفع هؤلاء في نهاية مطاف مأساتهم الى التوجه مباشرة الى رأس النبع والتخلي عن الملهاة – المأساة المسماة لجان متابعة في لبنان التي لا تملك من الحل والربط في انهاء هذا الملف الخطير سوى الشكل والواجهة، بل لعلها لا تملك سوى "توفية" كل المختفين والمعتقلين للتخلص من كرة النار هذه.

واذا كان هذا البعد في تحرك اهالي الضحايا (سواء كانوا قد توفوا او تعرضوا للتصفية، او لا يزالون معتقلين) يمثل ذروة تحركهم اليائس في "محاولة" لقاء الرئيس السوري اليوم في دمشق، فان البعد المهم الآخر هو في محاولة استكشاف المدى الجدي لانفتاح سوريا على هذه القضية، وغيرها من القضايا الملتهبة في العلاقات اللبنانية – السورية بحيث يتولى الرئيس السوري بنفسه ومباشرة بتها مع ذوي الشأن من دون مرور بالقنوات اللبنانية "التقليدية" التي ترعاها دمشق وفق نظام الرعاية المباشرة للوضع اللبناني المثير دوماً للتوتر في لبنان بفعل اعتباره من السلطة "تلازماً وتنسيقاً" واعتباره من المعارضة "هيمنة وتسلطاً".

وأغلب الظن في هذا السياق انه لا يجوز تكبير الآمال ونفخها لمجرد السماح لوفد اهالي المفقودين بزيارة دمشق لأن طابع تنفيس الاحتقان واعطاء علامة حسن سلوك للسلطات السورية سيسابق اي اعتبار آخر ما دامت دمشق اقفلت منذ زمن هذا الملف وأعلنت ان كل المعتقلين الذين لديها قد اطلقوا وان الباقين ينفذون احكاماً لجرائم وجنح ارتكبت داخل اراضيها.

ومع هذا فان العبرة ليست هنا، بل في مدى تحسس سوريا ورئيسها خطورة انغلاق الوضع اللبناني على كل قنوات الحوار الفعلي وانحباس هذا الوضع الى حد الاختناق والانفجار سواء بفعل انماط رعايتها لهذا الوضع او بفعل مصادرة السلطة اللبنانية كل اساليب الحوار وغرقها في حروبها الذاتية.

اذا ثبت هذا البعد في "الانفتاح" السوري، فهو يعني ان دمشق تتولى بنفسها تحسين صورتها الدولية عبر لبنان ولو بخطوات النملة، مما قد يفيدها ويفيد لبنان. لكن المقلق ان ذلك يجري في لحظة ينذر فيها الوضع اللبناني بالعودة الى حقبات صدامية، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، مما لا يعود معه كافياً التوجه الى "رأس النبع" في كل الملفات لتخدير كل هذا الغليان الذي يحتاج الى مبادرات فعلية تتجاوز الاستعدادات الكلامية للحوار على اهمية فتح الابواب في دمشق فيما هي موصدة في بيروت.

نبيل بو منصف